البعد الصوفي عند شعراء الرابطة القلمية

أ. قريش بن علي

أستاذ مساعد مكلف بالدروس،

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

جامعة سيدي بلعباس/ الجزائر

أجمع النقاد ومؤرخو الأدب على أن الحركة الرومانتيكية في الوطن العربي، كانت تحوّلا تاريخيا حاسما في تاريخ الأدب العربي الحديث منذ عصر النهضة، وقد تأثرت هذه الحركة بالرومانتيكية الغربية وبالظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية المحيطة، وبالظروف التي كانت تمر بها القصيدة العربية آنذاك(1)

ولا شك في أن الرابطة القلمية أبرز الحركات الرومانتيكية(2) التي عرفتها الساحة العربية وقتئذ، وقد قام الرواد الأوائل لهذه الحركة، من الشعراء والكتاب بالدعوة إلى فلسفة جديدة، تقوم على تمجيد العاطفة والخيال والطبيعة والحب(3) وغيرها من القيم الإنسانية والجمالية.

وإذا كانت هذه القيم الإنسانية والجمالية من خصائص الحركة الرومانتيكية العربية على وجه العموم، فإنها كانت عند شعراء الرابطة القلمية فكرة جوهرية وثابتة من ثوابت شعرهم ولذلك جاءت أشعارهم مشحونة بالدعوة إلى هذه القيم. فكان ذلك دليلا على ارتباط شعرهم بهذه الفكرة. إذ لا تكاد تخلو قصيدة من قصائدهم من الإشادة بالعاطفة والخيال والطبيعة والحب "والحب عند الرومنتيكيين العرب شبيه بالحب العذري، إذ يمتزج بوجدان الشاعر امتزاجا يكاد يتحد فيه الوجود الخارجي بالوجود الداخلي، فتحمل التجربة دلالات أرحب من الدلالات المألوفة في التجربة العاطفية"(4). وهو عند الرومانتيكيين الغربيين "عاطفة من وحي الطبيعة الصادقة ... وفضيلة من الفضائل"(5). "وهو وسيلة تطهير النفوس وصفاتها"(6) ، بل إنّ الجمال هو الحق نفسه(7)، كما ترسخ في نفوس الرومانتيكيين الأوربيين.

وقد عبّر عن هذا المعنى الشاعر الرومانتيكي محمد عبد المعطي حجازي (1908- 1938م) في قصيدته (إلى ..... الفاتنة)، بقوله:

كنْتِ فجرًا، وكنْتِ فيه ضبابا ... شاع في أفقه الوضيء فتاها

وهبطتِ الحياة شعلة تقديـــس جئتَ الحـــياة أنتِ إلها(8)

وهذا الموقف الذي عبّر عنه الهمشري في البيتين السابقين يشير بوضوح إلى فلسفة جديدة، تشكلت في فكر الرومانتيكيين العرب، وفي مخيلتهم، تجنح نحو المجرد والمطلق والمثال وكان الخيال وسيلة هامة عندهم للعبور إلى معنقة أسمى الحقائق في الوجود.

يقول محمد مصطفى بدوي: "حين نتأمل نتاج الرومانتيكيين الخالصين نلحظ أنّ الخيال يصبح عندهم وسيلة مشروعة للوصول إلى أسمى الحقائق في الوجود"(9) وقد رسم شعراء الرابطة القلمية المعالم الكبرى لهذه الحركة الأدبية في مجلة (الفنون)، التي نشروا فيها أعمالهم الشعرية والنثرية وفي سنة 1921 م، صدر في نيويورك مجلد كبير، يحمل عنوان "مجموعة الرابطة القلمية لسنة 1921م منتخبات آثار أدبية لعمال الرابطة القلمية" واتفق هؤلاء الشعراء على هدف واحد "هو كتابة أدب إنساني، أدب جديد، باللغة العربية، يعني بالروح والنفس البشرية، وطريق الصدق في التعبير عن مشاعر الإنسان، من الحرية إلى الحب"(10) وانطلاقا من هذه المنطلقات الإنسانية والروحية التي رسمها شعراء الرابطة القلمية لأدبهم أضحى واضحا أنهم أصبحوا أكثر انجذابا إلى الآثار الفكرية والأدبية التي تهتم بالروح والنفس الالإنسانيتين، وعلى وجه الخصوص، الفنون، ومنها الأدب.

وقد أفصح ميخائيل نعيمة عن هذه الفكرة في كتابه (الغربال)، فقال: "لقد قلت إن لكل شيء قيمتين روحية ومادية، لكن في الحياة ما ليس له إلا قيمة روحية، من ذلك الفنون ومن ذلك الأدب ..."(11)

ومن هنا، لا نجد صعوبة في الظفر على هذا البعد الروحي الذي أصبح الشعر المهجري لا يعرف إلا به. فقد سيطرت الروح الشرقية على أدب الشعر المهجري، برغم وجودهم الفيزيقي في قلب الحضارة الغربية، في الولايات المتحدة، على وجه الخصوص، لأنهم هاجروا إلى الشمال، وفي قلوبهم ظمأ روحي إلى الحضارة العربية الإسلامية المسيحية، التي تمج بالقيم الروحية التي تسمو بالنفس الإنسانية، وتعلي من شأنها، وتنظر إلى الجسد باستخفاف، لأن النفس خالدة، والجسد فان. ولذلك ظلت نفوسهم تتوق إلى الخلاص الروحي من أسر الجسد، ومن أسر الواقع العياني الذي أسر الروح.

وهذا النزوع إلى كل ما هو روحي، أثار في نفوسهم شهية "إلا عجاب بابن سينا والفلسفة الصوفية والأفلاطونية المحدثة والاشراقية، وبابن الفارض ..."(12)

وليس بالإمكان أن نعرض لكل ما كتب في هذا الاتجاه ولكن يكفي أن نشير إلى بعض الآثار الشعرية الهامة التي تختزل البعد الصوفي عند شعراء الرابطة القلمية ويبقى إعجاب هؤلاء الشعراء بعينية ابن سينا (النفس) التي مطلعها:

هبطتْ إليكَ من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزّز وتمنّعْ(13)

شاهدا على اهتمامهم بالعالم الداخلي للإنسان. ويبدأ هذا الاهتمام يتكشف بصورة واضحة من خلال العناوين التي وضعها هؤلاء لقصائدهم. إذ نجد أن الرواد الأوائل من هؤلاء الشعراء تستهويهم العناوين التي تشير إلى النفس ولذلك وضع جبران خليل جبران قصيدة، عنوانها: (يا نفس)، ووضع ميخائيل نعيمة العنوان نفسه لإحدى قصائده (يا نفس)، كما وضع نسيب عريضة عنوان، يحمل العنوان نفسه (يا نفس).

وهذه العناوين مناجاة من هؤلاء الشعراء إلى منّ شغلت فكرهم، (النفس) وأصبحت هي كل شيء في حياتهم. وهذه ما يشير إليه قول جبران:

ولمّا سألتُ النفْسَ ما الدهر فاعلٌ بحشد أمانينا أجابتْ أنا الدهْرُ(14)

ويبدو أنّ انشغال جبران بالنفس، يعود، في المقام الأول، إلى أن النفس خالدة، والجسم فان وليس الخالد كالفاني وهذا ما يشرحه جبران فيقول:

يا نفس إن قال الجهول الروح كالجسم تزول

وما يزول لا يعود

قولي له إنّ الزهورْ تمضي ولكن البذورْ

تبقى وذاكنه الخلودْ.(15)

ويكشف جبران خليل جبران عن انشغاله المفرط بالنفس، من خلال انشغاله بقصيدة ابن سينا (النفس)، فيقول: "ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس في هذه القصيدة النبيلة قد وضع الشيخ الرئيس أبعد ما يراود فكرة الإنسان وأعمق ما يلازم خياله من الأماني التي تولدها المعرفة والتساؤلات التي يثمرها الرجاء، والنظريات التي لا تصدر إلا عن التفكير المستمر والتأملات الطويلة"(16) ويقول أيضا: "... فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده ويجعل قصيدة في النفس أبعد وأشرف ما نظم في أشرف وأبعد موضوع"(17) إنّ النصوص السابقة، وتأتي على رأسها الأبيات الشعرية التي قال جبران، تبين أن شعراء الرابطة القلمية وجبران واحد من أهم هؤلاء الشعراء، كانوا يبحثون

عن المطلق والأبدية في نفوسهم، وعن الحقيقة في الطريق الذي سلكوه"(18) ، وإذا كان جبران قد انشغل بهذا العالم الداخلي الذي تموج في أعماقه خلجات الإنسان وانفعالاته، انشغالا كبيرا حجب عنه الرؤية الموضوعية إلى العالم الخارجي الذي تراءى له موبوءا، فإن اهتمام الشاعر نسيب عريضة، بالنفس لا يقل عن ذلك الذي أبداه جبران فهو (نسيب عريضة) ، يبدأ قصيدته (يا نفس) بمساءلة نفسه ومعاتبتها، ويطلب منها جوابا عن سرّ ألمها، فيقول:

يا نفس مالك والأنين ؟ تـــــــتألمين وتؤلمين

عذبت قلبي بالحنـــــين وكتمته ما تقصدين

ويقرر الشاعر أنّ مصير النفس، رغم هذا الألم، مصيرها، الخلود، وأمّا الجسم فمصيره اللحود:

يا نفس أنتِ لكِ الخلود ومصير جسمي اللحود

ولا شك في أنّ ثنائية النفس الخالدة، والجسم الفاني، تحرض الشاعر على الانشغال بالنفس، هروبا من دنيا الناس، وليس من مقام محبب إلى نفسه، كالغاب الذي يتعرى فيه مع نفسه ولا أحد يذيع سرّا فعناصر الطبيعة صامتة وهذا ما يقوله الشاعر بلسان النفس:

فصاحت النفس بي وقالت مالي وللـناس والزحام

أصبت يا نفـــس فاتبعيني فليس كالغاب من مقام

يا غاب جئناك للتعـــرى أنا ونفسي ولا حـــــرام

فليذع الغصن ما يـــراه منّا إذا أحسن الكـلام(18)

فهذه الأبيات وغيرها تكشف شوق شعراء الرابطة القلمية إلى تجاوز المعلوم إلى إلى المجهول، والمكشوف إلى المحجوب والمحدود إلى اللامنتهي، كما يبرز أثر الفكر الصوفي في الحضارة العربية الإسلامية، في نفوس هؤلاء الشعراء، توقا إلى البحث عن الحقيقة، وبصفة خاصة عند ابن عربي ، (أرض الحقيقة)(19) وهي من محض الخيال، ولكنها ترسم الأساس الروحي الصرف الذي ينبغي عليه العالم وهي عند جبران (البلاد المحجوبة)(20) .

ولعل هذا كله يبين في آخر المطاف، أنّ البعد الصوفي الذي تشكل في فكر شعراء الرابطة القلمية ،وفي وعيهم، إنما كان نابعا ، في أساس من تشبههم بالقيم الروحية للحضارة العربية الاسلامية، إضافة إلى التيارات الفكرية الرومانتيكية الغربية التي تجنح إلى التال ..... وتستشرق سعادة الانسان من خلال البحث عن الحقيقة في أعماق نفسه –لا غير–

المصادر والمراجع

1) ينظر : سعيد الوزيط، لغة الشعر العربي الحديث، مقوماته الفنية والإبداعية دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، 1983م، ص 139 .

2) وهي جماعة الديوان وجماعة أبولو

3) فايز ترجيني، الرومانسية في الأدب، مجلة (دراسات عربية)، العددان 7/8، 1988م، ص 124 .

4) إبراهيم محمد منصور، البعد الصوفي عند شعراء المهجر الشمالي وارتباطه بالرومانتيكية، عالم الفكر، العدد الأول، 1999، ص 420 .

5) محمد عيسى حلال، الرومانتيكية، دار الثقافة، دار العودة، بيروت، لبنان، 1973، ص 187 .

6) المرجع نفسه، ص 188 .

7) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

8) نقلا عن، صالح جودت، محمد عبد المعطي الهمشري، المجلس الأعلى للفنون والآداب، القاهرة، 1963، ص 35

9) إبراهيم محمد منصور، البعد الصوفي عند شعراء الجهر الشمالي وارتباطه بالرومنتيكية ، ص 44 .

10) المرجع نفسه، ص 45 .

11) ميخائيل نعيمة، الغربال، مؤسسة نوفل، بردن، لبنان، الطبعة الثانية عشرة، 1981م، ص 66 .

12) إبراهيم محمد منصور، البعد الصوفي عند شعراء الجهر الشمالي وإرتباطه بالرومنتيكية، عالم الفكر ، ص 46 . .

13) نقلا عن ، حنا الفاخوري وخليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، الجزء الثاني، دار المعارف، بيروت، لبنان، د ت ، ص 219 ، وهبطت: يفي النفس، إليك، أي الجسد.

14) المجموعة الكاملة، لجبران خليل جبران، قصيدة (سكوتي إنشاد)، ص 594 .

15) المصدر نفسه، ص 598.

16) المصدر نفسه، 542 .

17) المصدر نفسه، 545 .

18)إبراهيم محمد منصور، البعد الصوفي عند شعراء الالجهر الشمالي وارتباطه بالرومنتيكية، المرجع السابق، ص 47 .

18) ديوان الأرواح الحائرة، ص 85 .

19) ابن عربي، الفتوحات المكية، الشعر الثالث، ص ص 257، 285 .

20) ينظر المجموعة الكاملة، ص 599.